العرب
الجمعة 2019/12/20
السنة 42 العدد 11564

رثاء ثقافة تموت واكتشاف مدينة في الليل

«أنا لم أعد هنا» و«شبح مدار»
شخصيات تبحث عن هويتها في غير موطنها

حصل الفيلم المكسيكي "أنا لم أعد هنا" للمخرج فيرناندو فرايس على جائزة أفضل فيلم، أي "الهرم الذهبي"، من لجنة تحكيم المسابقة الدولية لمهرجان القاهرة السينمائي الـ41، وهو ما بدا أنه جاء بدافع التعاطف مع فكرة معاناة المهاجر الجنوبي القادم من المكسيك إلى أميركا، وذلك أكثر من كونه تقديرا للمستوى الفني للفيلم، في حين ذهب الهرم الفضي إلى الفيلم البلجيكي "شبح مدار" للمخرج باس لافوس، وهو تتويج مستحق لعمل مصنوع برقة بالغة.

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

ربما لم يكن فيلم "أنا لم أعد هنا" (I Am No Longer Here) على مستوى الفوز بالجائزة الكبرى لمهرجان القاهرة السينمائي. إنه ليس عملا رديئا بالضرورة، بل هو فيلم من الأفلام التي تظهر وتختفي، فيه الكثير من النوايا الطيبة والرغبة الحقيقية في التعبير عن واقع ثقافة توشك على الزوال بعد أن طغت ثقافة أخرى رديئة هي ثقافة المخدرات وعصابات المخدرات، وسيطرت على الشباب في تلك المنطقة الجبلية النائية من المكسيك (منتيري) التي تتميز بموسيقاها الشعبية التي يرقص عليها الشباب والمعروفة باسم "موسيقى الكولمبيانو"، وهي جزء من ثقافة "الشولو" المضادة للثقافة الرسمية والتي تعكس نوعا من التمرّد على الثقافة السائدة "الرسمية".

> «أنا لم أعد هنا» فيلم مكسيكي يعالج فكرة الارتباط الشديد بالثقافة الأصلية التي أصبحت مهددة بالزوال

بطل الفيلم شاب في السابعة عشرة من عمره اسمه "يوليسيس" قائد فرقة موسيقية تدعى "لوس تيركوس" يجد نفسه واقعا بين شقي الرحى عندما تهاجم إحدى عصابات المخدرات رفاقه ويقع في أزمة مع زعيم العصابة المناوئة الذي تعهد بحمايته وزملائه، بعد أن يُقتل عدد من أفراد تلك العصابة فيهاجر رغما عنه إلى نيويورك، ويقطن حي "كوينز"، ويحاول التأقلم مع واقعه الجديد إلاّ أنه لا ينجح، فالواقع يرفضه ويرفض وجوده.

ماذا سيحدث لهذا الفتى الصامت الذي يفشل في إقامة علاقة مع فتاة من أصل صيني بسبب عجزه عن فهم اللغة الإنكليزية وانكفائه على ذاته وتفكيره المستمر في انتمائه الأصلي وتحفظه مع الآخرين عموما. هو مهموم، يشعر بحنين جارف إلى موطنه، يحاول أن يستعيد علاقته به عن طريق رقصة الكولمبيانو، لكنه يطرد ويلفظ ويحظرون عليه الرقص في الساحات العامة أو محطات القطارات. شعوره بعدم الانتماء للمكان يتصاعد.

الثيمة الأساسية في الفيلم ليست بالتحديد ثيمة الهجرة، وهو ما يمكن أن يكون قد دفع لجنة التحكيم لمنحه الجائزة الكبرى، بل فكرة الارتباط الشديد بالثقافة الأصلية التي أصبحت مهددة بالزوال.

والفيلم مصوّر بأسلوب السينما التسجيلية، مع استخدام بارع للموسيقى والألوان وتجنب الطابع التقليدي مع استبعاد الكاميرا المحمولة المهتزة، لكنه يخلو من حبكة مقنعة منسوجة جيدا، كما لا ينجح مخرجه في تطوير الموضوع ليجعلنا نظل طوال الوقت أمام شخصية الشاب الصامت العاجز عن الفعل وعن تحقيق الذات خارج وطنه، ممّا يدفعه في النهاية إلى العودة.

ولا أعتقد أيضا أن منح الممثل خوان مانويل غارسيا تريفينا، بطل هذا الفيلم، جائزة أحسن ممثل، كان اختيارا موفقا، فتعبيرات وجهه ظلت جامدة واتصف أداؤه بالبرود وغياب الحيوية. لكنّ لجان التحكيم لها حسابات وتوازنات أخرى.

أما الفيلم الفائز بالهرم الفضي وهو الفيلم البلجيكي "شبح مدار" (Ghost Tropic) للمخرج باس لافوس، فهو أحد الأفلام البسيطة (المنياتير)، أي لا يتضمن شخصيات كثيرة ولا أحداثا متداخلة متشابكة، لكنه يدور حول شخصية واحدة لا نعرف عنها أو عن ماضيها الكثير، تقضي ليلة تتجوّل في أنحاء مدينة بروكسل في الشتاء.

هذه الشخصية هي "خديجة" (سعدية بنطيب) وهي عاملة نظافة من أصل مغربي، تعمل لدى إحدى الشركات. وبعد انقضاء نوبة العمل في وقت متأخر من مساء يوم من الأيام، تستقل قطار الأنفاق للعودة إلى منزلها، لكنها تستسلم للنعاس ولا تستفيق سوى في نهاية الخط لتكتشف أن جميع القطارات قد أنهت خدمتها لتلك الليلة.

تحاول اللحاق بحافلة من حافلات الليل لكنها أيضا توقفت عن العمل. ليس مع خديجة نقود كافية لكي تستقل سيارة تاكسي. لذلك تقرّر أن تقطع الطريق سيرا على قدميها.

> «شبح مدار» يدور حول شخصية واحدة لا نعرف عنها الكثير، تقضي ليلة تتجوّل في أنحاء مدينة بروكسل في الشتاء

خلال سيرها تلتقي خديجة بشخصيات متعددة، تتعرّف على ملامح من المدينة لا تعرفها، تبدو في لحظة ما أنها لم تعد تتعجل العودة إلى بيتها بعد أن أغوتها فكرة الاكتشاف: اكتشاف المكان الذي تعيش فيه منذ سنوات لكنها لا تعرفه معرفة جيدة، فالعمل يستغرقها تماما، فهي نموذج للاستلاب.

إنها تعود إلى مكان المنزل الذي كانت تعمل فيه في الماضي. تتأمله. لقد أصبح مغلقا الآن بعد أن هجره أصحابه. يستوقفها رجل. يسألها عمّا تفعله هنا، وعندما يعرف طبيعة عملها يعرض عليها العمل لدى أسرته لكنها تعتذر لأنها مرتبطة بالعمل في الشركة.

رجل مشرّد يرقد على الأرض يوشك أن يفارق الحياة. إلى جواره كلبه. تتطلع إليهما ثم تسرع لإحضار رجلي شرطة كانا على مقربة. تحضر سيارة الإسعاف تحمل الرجل لكن الكلب يبقى وحيدا مربوطا في البرد، تتطلع إليه خديجة في ألم وحزن لكنها عاجزة عن أن تفعل شيئا. في نفس الليلة ستذهب خديجة إلى المستشفى للاطمئنان على الرجل لكنها ستجده قد فارق الحياة.

بطل فيلم «أنا لم أعد هنا» يبحث عن الانتماء

خديجة بطلة «شبح مدار» غفوة تقودها إلى عالم لا تعرفه

الفيلم مصنوع بتحكّم يصل إلى مستوى الصرامة. ليس هذا فيلما عن المشاعر المتدفقة، ولا من أفلام التعليق الاجتماعي النقدي المباشر الصارخ، بل تكمن قوته فيما يكشف لنا عنه من تحت جلد الصورة. إن بطلته ليست غاضبة ولا راضية، إنها فقط تسير كما لو كانت منومة. راضية بما تفعله، معتزة بنفسها، تعرف ما تقوم به، تسير في هدوء إلى مصيرها.

لقد جاءت من حيث لا نعرف، وهي الآن ذاهبة إلى بيتها ولا بد أنها ستصل إليه ولكي تستأنف في اليوم التالي دورة الحياة الرتيبة في تلك المدينة الغريبة. كل ما نعرفه أن زوجها "منير" توفّي منذ سنوات، وأن لديها ابنة تشاهدها صدفة من نافذة القطار، والواضح أنها اختارت لنفسها طريقا خشنا للعيش، كما تتحدث لصاحبة المحل، التي سمحت لها بالمكوث لبعض الوقت، عن ابنها الذي ترك البيت ولا تعرف عنه شيئا.

خديجة لا تنظر إلى ما تقابله في غضب أو احتجاج بل تبدو كما لو كانت تشعر بكل من تقابلهم، وتتعاطف معهم. إنهم عالمها، وعالم المدينة التي تعيش فيها وكانت منعزلة عنها وفي هذه الليلة الباردة تخوض تلك المغامرة الليلية في شجاعة دون خوف أو وجل. تسير وحدها، معتزة بكرامتها. إلى جانب أنه مصنوع برقة بالغة هو أيضا فيلم تمثيل، فلولا الأداء البليغ من جانب الممثلة سعدية بنطيب، لم يكن الفيلم ليكتسب كل هذه الجاذبية. وبوجه عام هذا فيلم بسيط لكنه معبّر ومحكم ولا يوجد فيه ما يفيض عن الضرورة، فكل لقطة في مكانها، وإيقاع الحركة بطيء بطء تلك الليلة التي تبدو كما لو كانت قد امتدت لتصبح عالما بأسره.

المخرج يتعمّد أن يفتتح فيلمه بلقطة ثابتة لغرفة معيشة داخل أحد المنازل تستغرق وقتا طويلا على الشاشة، دون أيّ حركة، هذه اللقطة تتكرّر قرب النهاية، لكنه ينهي الفيلم بلقطة تفوح بالأمل والتفاؤل. بالاحتفال بالحياة، بالتطلع في أمل إلى المستقبل.

«كان خالد» دراما كويتية تخوض بجرأة في جرائم العنف الأسري

عادة ما تكون جرائم العنف الأسري في المجتمعات الخليجية والعربية بشكل عام مصحوبة بهالة من السرية والكتمان، نظرا للعادات والتقاليد التي تفرض على الأنثى عدم البوح بمثل هذه التصرفات أو الجرائم التي تُرتكب في حقها من قبل الأهل. إلا أن المسلسل الكويتي "كان خالد" يذهب بعيدا في الكشف عن تلك الممارسات المسكوت عنها داخل الأسرة الواحدة مستعرضا تبعاتها السلبية على الفرد والمجتمع.

ناهد خزام
كاتبة مصرية

يسلط المسلسل الكويتي "كان خالد" الضوء على عدد من التجارب القاسية لبعض النساء الكويتيات ممن يتعرّضن للتعنيف من قبل ذويهن، محذرا من تبعاتها على المجتمع.

ويعدّ العمل أولى التجارب الدرامية للكاتبة جميلة جمعة التي قالت عنه "المسلسل يطرح مجموعة من القضايا الواقعية، التي استقيتها من لب المجتمع ومن داخل البيوت الكويتية".

والمسلسل من إخراج نايف الراشد الذي يتولى أيضا القيام بدور البطولة الرئيسية فيه بجانب الفنانين زهرة عرفات والفنانة طيف، وفخرية خميس وسارة القبندي وليالي دهراب وشهاب جوهر ونواف النجم، ومجموعة متنوعة من نجوم ونجمات الخليج العربي.

ويدور العمل حول أرملة وأسرتها المكونة من ابنها خالد وأخواته الثلاث: سارة وفاطمة ودانة. يمثل خالد الشخصية المحورية في المسلسل، وهو شخص عنيف الطباع، دائما ما يختلق الأسباب لتعنيف أخواته.

يعامل خالد أخواته الثلاث بقسوة بالغة، وهو يثير الرعب في قلوبهن لمجرد وجوده في البيت، فهو دائم التعنيف والتوبيخ لهنّ لسبب أو دونه، مستعملا معهنّ وسائل مُفرطة في العنف.

وفوق كل ذلك يتّصف خالد، الذي يؤدي دوره نايف الراشد، بصفات أخرى قبيحة؛ فبالإضافة إلى كونه لم يكمل تعليمه، لا يحافظ على نظافته الشخصية، ويأكل ويتصرّف بطريقة همجية، كما يستولي على راتب أخته الصغرى، بينما يعامل أخته الكبرى سارة وزوجها بالكثير من العجرفة.

نماذج متباينة ومختلفة من النساء يتعرض لها المسلسل، كنموذج الأم الضعيفة وقليلة الحيلة التي تتسبب بضعفها في تمادي ابنها في أفعاله؛ تجسد هذه الشخصية الفنانة طيف التي تقوم بدور والدة خالد، وهي دائما تختلق لابنها الأعذار وتقف موقفا سلبيا تجاه تجاوزاته ضد أخواته.

على النقيض تماما يطالعنا أيضا نموذج الأم المسيطرة التي تتدخل في كل تفاصيل وحياة أبنائها، كشخصية أم طلال، التي تلعب دورها الفنانة فوزية محمد، والتي تقف حائلا بين ارتباط ابنها الوحيد بالفتاة التي يحبها. هناك أيضا نموذج المرأة المُتصابية التي تبحث عن الحب، وتعميها رغبتها تلك في رؤية الفروق الشخصية والاجتماعية بمن تود الارتباط به، وتجسدها الفنانة فخرية خميس.

أما أخوات خالد الثلاث فلكل منهنّ تركيبة مختلفة عن الأخرى، لكنهنّ يشتركن في نفس المواقف السلبية وقلة الحيلة في مواجهة سطوة الأخ أو الزوج.

لا تستطيع فاطمة، التي تؤدي دورها الفنانة سارة القبندي، البوح بمشاعرها أو الاعتراض على تصرفات أخيها وتحكّمه حتى في راتبها الذي تحصل عليه من عملها في إحدى المدارس. أما الأخت الصغرى دانة، التي تؤدي دورها الفنانة ليالي دهراب، فهي تسلّم أمرها تماما لأخيها ولا تستطيع الحركة أو التصرّف في أبسط أمورها إلاّ بإذنه، حتى على مستوى علاقاتها مع زميلاتها في الجامعة. وعكس ما هو متوقع في المسلسلات الخليجية الاجتماعية لا يأتي ختام المسلسل بنهاية سعيدة أو تغير درامي حاد في تركيبة الشخصيات وقناعاتهم كما يحدث دائما، إذ يطالعنا العمل بسياق مختلف ومفاجئ أيضا وإن كان مؤلما. فالنهاية القاسية للمسلسل تتّسق مع تركيبة الشخصيات والأحداث التي تتصاعد على نحو منطقي حتى تصل بنا إلى نقطة فارقة.

واستطاع الفنان نايف الراشد بحرفية تقمص شخصية خالد المتناقضة والمركبة، وهي شخصية مختلفة عن الشخصيات النمطية التي نراها عادة في الأعمال الدرامية الخليجية. فقسوة الشخصية وانحرافها لا ينبعان من حَميّة أو ارتباط بالعادات والتقاليد، بقدر ما ينبعان من اضطراب نفسي وسلوكي ورغبة مرضية في السيطرة والتحكم.

ويتمثل تناقض شخصية خالد وانحرافها في العديد من النقاط، ففي حين يعُد الأخ على أخواته الأنفاس ويعاقبهنّ لمجرد الخروج دون إذنه بتقييدهنّ وحبسهنّ في قفص حديدي كالحيوانات، كما يبدو حريصا على عدم اختلاطهنّ بالرجال، لا يتورّع أيضا عن استغلال أخته الصغرى دانة في نزواته وسلوكه الاحتيالي ما يعرضها للخطر. ويقدم خالد أخته الصغرى لأحد الرجال من كبار السن كعروس من أجل ابتزازه في ما بعد، كما يشركها معه في الاحتيال على أحد تجار الذهب. ويتسم خالد بالبخل الشديد، فهو يقتر على أسرته على نحو بالغ حتى في أبسط الأمور، كما يتسم أيضا بالطمع والانتهازية الشديدة، إذ لا يتورّع مثلا عن إلقاء شباكه على مديرة المدرسة التي تعمل فيها أخته فاطمة رغم فارق السن بينهما ويدعوها إلى الزواج من أجل الاستيلاء على ثروتها. ومع ذلك لا تخلو الشخصية التي يقدّمها نايف الراشد، رغم قسوتها، من طرافة أحيانا، وهي طرافة مبعثها جموح تصرفاته وشذوذها.

> المسلسل يسلط الضوء على عدد من التجارب القاسية لبعض النساء الكويتيات ممن يتعرّضن للتعنيف من قبل ذويهن

نساء لا حول لهن ولا قوة

ويحسب على المسلسل بطء الإيقاع والتكرار والخلط أحيانا بين المواقف الجادة والهزلية. كما حفل العمل ببعض التفاصيل الأخرى التي كانت في حاجة إلى المزيد من الحبكة، كمشهد إلقاء خالد لأخته في خزان المياه، أو النزاع بين مديرة المدرسة وإحدى المدرسات. لكن في المُجمل يمثل "كان خالد" بلا شك حالة مختلفة ولافتة بين الأعمال الخليجية التي تم عرضها مؤخرا.